تراث القارئ أم متحف الشعر؟

حول قراءة أدونيس لديوان الشعر العربي

د.حاتم الصكَر *

يقول أدونيس- وهو يصف صلة الشاعر يوسف الخال بالتراث-«التراث لكل شاعر هو في المعنى الأخير انتقاء من الإمكانات والقيم التي يزخر بها. وليس أخذاً بالجملة لهذه القيم والإمكانات. هذا الانتقاء لا يعني إهمالاً للقيم الأخرى أو ازدراء، بل يعني شيئاً واحداً هو أن الإنسان لا يستطيع أن يأخذ إلا ما يوافق تجربته وحياته وفكره.إذن لكل شاعر حقيقي، تراث، ضمن التراث الواحد».

يبدو في المقتطف السابق رأي أدونيس في الموقف الشعري من التراث. فهو(انتقاء) لا أخذ بالجملة. وبذا يكون لكل شاعر تراثه ضمن التراث الواحد. وذلك ما يمكن ان يصلح وصفاً لصلة أدونيس نفسه بالتراث. فالانتقائية هي التي تحكمت فيه. ويمكننا رؤية ذلك:

- أولاً: من خلال وجود التراث في شعر أدونيس، وما دخل فيه من تناص ثري مع التراث الصوفي خاصة، وبكيفيات مختلفة، ومع الشعر الخارج عن المقاييس التقليدية، ليس(الكتاب)المكرّس لسيرة المتنبي إلا شاهداً واضحاً عليها.
- ثانياً : عبر ملاحقة تنظيرات أدونيس حول التراث وفي أطروحته حول الثابت والمتحول، أو الإتباع والإبداع.
- ثالثا: من خلال قراءته لنصوص التراث في مختاراته المعروفة(ديوان الشعر العربي).

والواضح أن الانشطار في الشخصية القارئة لدى أدونيس بين الذات الحداثوية في الشعر، والمستعيدة للماضي في الفكر حتى لو بفرض مجابهته ومساءلته هي التي تحكمت في صنع ثنائيات متراكمة بشكل لافت في أطروحات أدونيس، كالماضي والتراث، والحداثة والتجديد، والرفض والتمرد، والقبول والتساؤل...

ثمة بحث دائب عن جذر لشجرة الحداثة في تربة التراث فيجدها لدى(أبي تمّام)مثلاً، بينما يرمي الخصوم المقلدين والماضويين بأنهم يبحثون عن نموذج أصل، أو يؤصلون الظاهرة ليمنحوها وجودا أو شرعية.

* ناقد وأكاديمي عراقي مقيم في الولايات المتحدة

لكننا وبالعودة إلى المقتطف السابق حول تراث الشاعر ضمن التراث نعثر على ثلاث أفكار مهمة حول صلة أدونيس بالتراث وموقفه أو رؤيته

- فالتراث: انتقاء، يوافق تجربة الشاعر، ويخصه وحده.

هكذا أقدم أدونيس على تدشين مشروعه الأنطولوجي بمختارات من الشعر العربي أسماها ديوان الشعر العربي، وأعقبها بعد سنوات بديوان النثر العربي.وعلينا قراءة مختاراته لا بالمعنى الحصري الذي يوجهنا إليه العنوان(ديوان..) بل بمقترح أدونيس نفسه بكون التراث هو تراث الشاعر

يصف أدونيس عمله بأنه اختيار من وجهة نظر جديدة ...ليست جمعاً تقليدياً يكرّس المقاييس السائدة والذوق الشائع. وأن عمله هو(عمل شاعر لا مؤرخ أو عالم).

بهذا الإحساس فصل أدونيس بين التاريخ الشعري، والتاريخ السياسي والاجتماعي. وفصل بين الشاعر وشعره، والشاعر وبيئته وظرفه العام

وبذا أصبح الانتقاء موقفاً فكرياً وليس ذوقياً فحسب. فلا يهم مثلاً أن يكون القائل امرأ القيس أو أحداً سواه. فليس المهم من تغنّى بالليل والصحراء والمهم كما يقول كيفية غنائه. ويطمح أدونيس أن يقدم ما يسميه متحفاً للشعر العربي(مختصراً وجامعاً). وهذا انحياز واضح للحاضر. فالنصوص المعروضة متحفياً قد تجمدت وكفّت عن الحياة إلا بأثر سابق وضمن سياق الماضي الذي جاءت منه. فهل يريد أدونيس العودة ثانية لمقولته المبكرة: إن الشاعر لا تراثَ له؟ والتي غادرها نهائياً بموقفه الانتقائي الجديد. في ظني أن وصف(المعرض) أكثر ملاءَمةً من المتحف. فالمختارات تقدم شريحة مقتطعة من سيرورة الشعرية العربية في زمن محدد. وهي معروضة للقارىء كي يتفاعل معها وينفعل. وهذا مالايمكن ان تقدمه النظرة المتحفية التي يهمها التسلسل التاريخي أكثر من الأثر الفني...

ولعل أدونيس ينسى أن(الإسقاط)هو من لوازم الانتقاء. فما فعله في المختارات هو البحث عما يعزز أطروحاته.وهذا شيء صحي ومفيد للقراءة المعاصرة للتراث. وقد توضح ذلك بشكل أكيد حين حصر أدونيس الشعر العربي بين قوسي(القبول والتساؤل)رافضاً ما اتسم بالقبول؛ لانه ينطوي على(رضى وطمأنينة ويقين) يقابله في التساؤل(الرفض والتمرد والشك) الذي يرضي ذوقه ورؤيته .

في سبيل البحث عن نصوص التساؤل في الشعرية العربية ينهج أدونيس طريقة التبويب؛ ليضع كل نص في حقل مناسب من وجهة نظره. وبذلك حصر الشعر العربي- المتسائل طبعا- في خمسة اتجاهات بمبالغة وتوسيع ومجازفة لا يستوعبها واقع النصوص. أو تدعو أحياناً للتمحل والإكراه وليِّ أعناق النصوص لتدخل في الاتجاه المطلوب. وإلا كيف نقتنع كقراء بوجود اتجاه سحري(قائم على هوى التخيل والتوهم) ولاتوجد شواهد تراكم التعامل بهذا الاتجاه.؟وكيف نقتنع لاحقاً بأن هذا الاتجاه السحري(نما في ما بعد عند الصوفيين) وكل ما يقدمه أدونيس دليل أو شاهد واحد هو نُتف من قصيدة يتيمة للبهراني؟ فالشاعر نفسه لم يطور رؤيته لاحقاً ولم يؤسس لما

بعده. ومبحث التأثر الصوفي به سيكون لغير صالح الفرضية الأدونيسية والاتجاه السحري المقترح. فالتخيل والتوهم ليسا المشغّلين الأساسيين في شعر المتصوفة الذين ينطلقون من يقين، يكسونه بثياب الإستعارات والرموز الموهِمة بالتوهم..أما القول بأن شعر ابن بابك هو تطوير للاتجاه السحري- البهراني- فهو غريب حقاً. فأدونيس يختار لابن بابك إحدى وثلاثين قطعة يزيد عدد أبياتها على المائة. ويفوق ما اختار لشعراء مهمين كالشريف الرضي والمعري وابن هانئ وبشار. وليس في شعر ابن بابك ما يؤهل للاندراج في الاتجاه السحري الذي يصفه أدونيس بأنه «سفر في الأعماق يواكبه الخيال واليأس من الحياة ورجاء الخلاص» متوقفا عند قوله أنا ابن اليأس ووصف الوطن بالصحن!. ومن أطرف ما اختار له قوله:

جداول لو مرت بمدرج مائها

ضفادع حسي لم تجد فيه مسبحا!

ذاك مثال واحد على الإكراه والإسقاط الجبري الذي يمكن رؤيته بجلاء في حديث أدونيس وأمثلته عن الشعر الوجودي، والقائم على التأمل الميتافيزيائي، واتجاه اللامنتمين أو المتمردين.

يشبّه أدونيس القصيدة الجاهلية بالخيمة في فضاء محيط بالشاعر. وهذا تشبيه موفق وبليغ يعكس صلة القصيدة بسياقها والشاعر بمحيطه. ويحل إشكال التمزق الموضوعي في النص القديم والمقدمة التقليدية وغيرها من إشكالات الشعرية الجاهلية ..ولا يعني ذلك الدعوة لدراسة اجتماعية مثلا، بل لتلمّس مؤثرات ومشغّلات النص القديم. والخيمة تبرر تفكك القصيدة الجاهلية المتمزقة في أغراض شتى، كما تلاعب الرياح الخيمة وتعبث بها .

ومن الأحكام الجائرة ماجاء بصدد شعر المعري. فأدونيس يراه ضمن الاتجاه الميتافيزيائي. لأنه(قائم على التأمل)وليس فيه شيء من الفلسفة التي تتضمن عند أدونيس(طريقة ومنهجاً في التأمل..ولا طريقة لأبي العلاء)وفي ظني أن تلك مُصادرة لفكر المعري وتأملاته المعمقة وطريقة تفكيره الموحدة والشاملة على الرغم مما فيها من تشاؤم وشك. بل لعله أقرب الشعراء لميزة التساؤل التي حددها أدونيس نفسه كتطوير في الحساسية الشعرية العربية. وربما كان البحث عن الفلسفي في الشعري استقصاءً مغلوطاً كمقدمة منطقية لذا أدت إلى تلك الأخطاء في النتائج، إذ لا يمكن للشعري استيعاب الفلسفي بالمعنى المدرسي الذي قدمه أدونيس ولخَّصه في الطريقة، وربما كان يعني المنهج. وهو أمر مستحيل شعرياً؛ لأن الأفكار في القصيدة تستجيب للتكييف الشعري، ولا يمكن أن تبقى بصلادتها المنطقية. من هنا تجاوز أدونيس تأملات المعري المعمقة والمترابطة والدالة على منهج في التفكير وليست هي المنهج طبعا.

وفي شعر العصور المتأخرة يتجاوز أدونيس نصوصاً كثيرة للطغرائي والأبيوردي مكتفياً ببيتين للأبيوردي في وصف روضة، وبقطعة قصيرة للطغرائي في الريح..فيما اختار لشعراء أقل منهما شأناً وشاعرية.

وتكمن إحدى زلات القراءة الأدونيسية للتراث الشعري في الإجتزاء، إذ يقتطع من النصوص ما يشاء ويهبه عنواناً هو من منتجات الحداثة ومخرجاتها، فيتغرب النص، أو يعلو فوق

مضمونــه المتواضــع وبنائه الركيــك بالعنوان الحداثــي الجــذاب مثل(كيميــاء) و(غربــة) و(نســاء). العتبــة الجاذبة هنا تنقــذ الداخل المتهالك..

وثمــة خلط آخــر في المختارات بين الشــاعرية الحقيقية والمكرّســة في تجارب لها ما يميزها، وبين شــعر العلماء الذين اختــار لهم أدونيس شعراً، وهو يعلم فجاجة شعر العلماء وما قيل فيه نقدياً حتى في المتون النقدية القديمة، كما ذكر ابن قتيبة في(الشــعر والشعراء)مثلاً حين وصف شــعر العلماء بالــبرودة والصناعة، مع غيــاب الموهبة والملكة، وانشــغالهم بالعلم عن مستلزمات الفن الشــعري. وسنمثل لذلك بما اجتــزأ لحماد عجرد في الشــكوى. فقام بوضع عنوان(تــراب) الذي لا يوحي به البيت الركيك المختار:

لم أجد من العباد مجيرا

فاستجرتُ الترابَ والأحجارا

تلك كانت مواجهــة جدلية لموقف أدونيس من التراث مختــاراً ومنظّراً، أبرز دوافعها خطورة دوره وأهميته في التحديث الشــعري والنقدي، فقــد طغــت في عملــه الأنطولوجــي الانتقائية والإجتــزاء والإســقاط الذاتــي عــلى القــراءة الموضوعية للنصوص.

ولكــن فضيلــة أدونيــس في عملــه التراثي كله سواء بالتناص في شعره أو مختاراته وتنظيره، أنه أعاد هيبة الــتراث وقيمته كمرجع ومكوّن ثقــافي للشــعراء وقــراء الشــعر، وســط لجة النكران الســتيني وجماعة(شعر)خاصة وهو أحد أعضائها المؤثرين. والتصور الشائع خطأً بتعارض التراث والحداثة كســلوكين شعريين لا يلتقيان.

وأحسب أن عودة أدونيس للمتنبي في(الكتاب- أمــس المــكان الآن)هــو تصحيــح لكثــير من المؤاخذات عــلى قراءته للنص التراثي ومحاولة إخضاعــه لإكراهات اليقــين الحديث والتصور المعــاصر. فقــد كان حضــور المتنبــي واضحاً بموقفــه ونصــه، بما يحــف به مــن تحديات وعــداوة.. وباجتراحاته ومخاطراته في الشــعر والحياة معا ...

« الشــعر(غواية) ،الدين (هداية)
تقليد قديم يوناني ـ إســلامي
مع ذلك لم يعشــق العرب من اللغة
شــيئاً كما عشــقوا شــعرها »

(أدونيس ، ليس الماء وحده جواباً على العطش ، ص١٤٦)